

التعامل الديني مع الآخر في المدونات الفقهية

د/ صالح سعدون

أ. محاضر، جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة. الجزائر.

salahaadoun58@gmail.com

الملخص

إن التعامل الديني مع الآخر في المدونات الفقهية قد أخذ حيزا لا بأس به في الفقه الإسلامي ، وقد تدخل هذه التعاملات الدينية مع الآخر في أبواب متفرقة من أبواب الفقه الإسلامي ، فهي في فقه الأسرة ، وفي أحكام أهل الذمة ، وفي الوصايا وفي أحكام الشهادة ، وفي الجنائيات و في غيرها من كتب الفقه دون تخصيص ذلك بكتاب معين لأن أصحاب المدونات الفقهية قد تعاملوا مع أهل الذمة كمواطنين عاديين .

الكلمات المفتاحية / الآخر الديني - المدونات الفقهية - الحوارات الدينية-أحكام أهل الذمة.

Abstract

Religious dealings with others in jurisprudential blogs have taken a good place in Islamic jurisprudence, and these religious dealings with others may be included in separate chapters of Islamic jurisprudence. Crimes and other books of jurisprudence without specifying that to a specific book because the owners of jurisprudential blogs have dealt with the people of dhimmis as ordinary citizens.

Keywords: the religious other, jurisprudential blogs, religious dialogues, rulings of the dhimmis.

{لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8)}

إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ ۗ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)}

الممتحنة : آية 8 و9.

❖ مقدمة

إن أحكام أهل الذمة لم تخصص لها أبواب مستقلة في مدونات الفقه الكبرى ، فما تعلق منها بالوصايا يوضع في كتب الوصايا داخل أمهات مدونات الفقه الإسلامي فوصية المسلمين للمسلمين ووصية أهل الكتاب لأهل الكتاب تحرر مسائلها في كتب الوصايا ، وما تعلق منها بعقود الزواج يوضع في كتب

الأنكحة ، وما تعلق منها بالشهادات يوضع في كتب الشهادات ، وما تعلق منها بالجنايات يوضع في كتب الجنايات والقصاص ، فهي متناثرة بين أبواب الفقه و الأقضية المختلفة ، ولم تخصص لهم أبواب أو قوانين خاصة بهم ، فهم يعاملون كمواطنين عاديين ، إلا ما كتب في مؤلفات المتأخرين والمعاصرين المخصصة لأحكام و أقضية أهل الذمة .

وأكثر المدارس الفقهية التي عالجت قضايا أهل الذمة هي: مدرسة الأحناف ومدرسة المالكية ، فالأحناف بحكم شيوع مذهبهم في بلاد ماوراء النهر وعموم بلاد السواد كما يعبر عنها قديما ، والمالكية بحكم سيطرة مذهبهم على غرب أوروبا في فترة حكم المسلمين للأندلس وجزء من فرنسا ، فالمذهب المالكي هو ما عرفته أوروبا ولم تعرف مذاهب فقهية أخرى ، وقصة نابليون لما ذهب لمصر أخذ معه شرح الدردير على أقرب المسالك في فقه الإمام مالك ، واكتشاف هذا الأمر يعود للطلبة المسلمين الذين انتدبوا للدراسة في جامعة السربون فاكتشفوا مسائل فقهية إسلامية مستخرجة من الفقه المالكي مبثوثة في مجلات الأحوال الشخصية الفرنسية ، وإلا كيف يعرف المشرع الفرنسي عيوب الإرادة أو الغرر أو الاحتكار وغيرها¹.

❖ أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في تقييم مستوى استجابة مدونات الفقه القديمة والمعاصرة لتساؤلات الآخر الديني سواء كان مسلما يعيش في ديار الغرب المسيحي أو كتابي يعيش في بلاد الإسلام .

فعلماء الإسلام قد عقدوا فصولا في مدوناتهم يشرحون فيها مغاليق المسائل في أحكام أهل الذمة وما للمسلم تجاه الأغيار وما عليه، والنماذج في ذلك قد لا تحصى لكثرتها، ولعل من صنف في أفراد المسائل الإمام عبد الكريم المغيلي نزيل تلمسان (ومفتى أفريقيا الوسطى والتشاد والسودان) رحمه الله في (رسالة الأغلاف) أو أبناء اليهود الذين ماتوا قبل بلوغهم، فاهتمامهم رحمهم الله بدقائق المسائل دليل واضح على رعاية الإسلام وعلماءه الأجلاء بجميع ما يتعلق بمعاملة المسلم لغير المسلم حتى ولو كان في حكم من مات من غير المسلمين وهو صبي أو هو على الفطرة أم لا، وما ينبني على ذلك من أحكام فقهية.²

كما تشير كتب المعاهدات إلى الكثير من الأمثلة الرائعة في تاريخ الإسلام المجيد، كأنطاء بيت عينون لبني عبد الدار كرامة لتميم الداري رضي الله عنه، وكذلك الأرض المتصلة بجبل أبو غنيم لعشيرة عياض بن غنم رضي الله عنه وقد جمعها العلامة محمد حميد الله في رسالته الشهيرة: (الوثائق السياسية)³.

❖ أهداف البحث

تتلخص أهداف البحث في بيان ما إذا كانت المدونات الفقهية قد احتوت جميع مسائل أهل الذمة أم أنها قد جعلتها مسائل فرعية ضمن مسائل تهم جميع المواطنين في أي بلد مسلم كما سبق وذكرت في المقدمة ومن بين أهداف البحث عرض مسألة ذمّة المسلم في بلاد الغرب المسيحي ، وهل يصلح إسقاط مسائل أهل الذمة على المسلم المعاهد الحائز جنسيات دول الغرب المسيحي.

وكذلك ما يتعلق بالنوازل الحاصلة للمسلمين في الغرب خاصة فيما يتعلق بأحوال الأسرة والزيجات مع غير المسلمين.

❖ الإشكالية

إن ما يسمّى بالآخر ليس بريئاً ، فمطلوب منه مناقشة التعايش كما ناقشه نحن ، مع الاعتراف أن الآخر المقصود هو من المواطنين المميزين المساهمين في الاقتصاد من أعمال التجارة والحرف وحتى في الكتابة والتأليف .

ولعلّ سرّ عداة المغاربة النوميديين للآخر ناجم عن تورّط بعض أهل الذمة في أعمال عدائية تخريبية وتجسسية ضد الدول الإمارات المحلية في زمن الموحدين والمرابطين والزيانيين ، فبعد إيواء أهل تلمسان وتوات لهم بعد النفي الأندلسي قاموا بأعمال نهب وتخريب واحتيال على الأهالي وقتلوا ابن الشيخ المفتي عبد الكريم المغيلي وهو غائب عنها ، كما سجّلت حرب التحرير الجزائرية تورّط الأوروبيين واليهود في أعمال ضدّ الشعب وثورته لصالح فرنسا والحلف الأطلسي فيما يعرف بقضية الأقدام السود .

فهل أفردت مدونات الفقه كتباً خاصة بأحكام أهل الذمة؟

وهل عالجت جميع ما يتعلق بمعاملتهم مع غيرهم من المسلمين؟

و هل تكفي أن تكون المسائل المطروحة في مدونات الفقه كافية لمعالجة المسائل المعاصرة و للجواب على ما استشكل من نوازل العصر؟

1. مفهوم الذمي

هو غير المسلم المقيم إقامة مستقرة في بلد إسلامي، يكون وافداً أو أصيلاً ، حائزاً على الجنسية ، دافعاً للضرائب ، متمتعاً بالحقوق المدنية والسياسية .

والذمي لغة نسبة إلى الذمة، أي: صاحبُ الذمة. والذمة: العهدُ والأمان. قال ابن فارس:

فأما العهد فإنه يسمى ذمماً لأن الإنسان يذم على إضاعته منه ...، وأهل الذمة أهل العقد. قال أبو عبيد: الذمة الأمان، في قوله صلى الله عليه وسلم (ويسعى بذمتهم) . ويقال أهل الذمة لأنهم أدوا الجزية فأمنوا على دمائهم وأموالهم⁴

المؤلفات الفقهية في أحكام أهل الذمة :

لقد ألف أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني دفين فاس سنة 914 هـ (المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب)، وهو أكبر موسوعة نوازلية في المغرب في فترة بني عبد الواد الزيانية ، جمع فيه فتاوى المتقدمين والمتأخرين من فقهاء المغرب والأندلس، بالإضافة إلى فتاواه الخاصة. وهو مطبوع في حوالي (12) مجلداً، وقد جمع فيه نوازل المالكية في صورة سؤال وجواب مرتبة على أبواب الفقه، ففيه نوازل العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والحدود وغيرها، وله مكانة مرموقة عند الفقهاء والقضاة قديماً، ولا يزال مصدراً زاخراً بالمعلومات الشرعية وغيرها عند المسلمين بالغرب الإسلامي.⁵

و أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية هو أم المدونات في مسائل أهل الذمة الفقهية ، وكل من جاء بعده فهو عيال عليه ، بين مقتبس ومختصر وشارح ، وكتاب ابن قيم الجوزية عمل ضخم جاء في ثلاثة أجزاء بمحتوى 1568 صفحة دون الفهارس ، فيها 312 فصلاً مستقلاً من المسائل المختلفة من أحكام أهل الذمة .

وقد اختصره من المعاصرين سليمان بن صالح الخراشي طبعته دار القاسم بالرياض سنة 2004.

وكتب في الموضوع عبد الرحمان العقل بحثا مطولا سنة 2010 أخذ به جائزة نايف للسنة النبوية ، وهو بحث ماتع مطول ، كما فيه صديقنا الأستاذ الدكتور أحمد بوسجادة الأستاذ السابق بجامعة الإمام فرع النيجر والجامعة الأسمرية بليبيا ، والأمير عبد القادر ، وجامعة باتنا حاليا مقالا بعنوان : التسامح الديني في الإسلام مع غير المسلمين أهل الكتاب نموذجا . سنة 2018 وهناك عشرات المواد المنشورة في الموضوع بين مكتوب و مرئي مسموع ، كمقال التعمّلات السياسية للرسول مع غير المسلمين المنشور في أكتوبر 2021 من طرف سناء الدويكات .

2. هل يكون المسلم ذميا في بلاد الغرب ؟

يكون المسلم ذميا معاهدا في بلاد الغرب المسيحي بحكم تجنسه وإقامته فيها ، تكون قضاياها النازلة في أحكام الذمة تستحق أن تقر بمدونات فقهية مستقلة ، وما يقوم به الشيخ عبد الله المحفوظ بن بيه هو بمثابة التأصيل الفقهي لما يعرض عليه من قضايا المسلمين في الغرب المسيحي فهو يؤكد دائما على مراعاة شؤون أبناء الجاليات المسلمة في الغرب بما يتوافق وروح الشريعة و مقاصدها ، خاصة قضايا تزويج بنات المسلمين بغير المسلمين.

وكثيرا ما كان الدكتور بن بيه يلوم في زيارته للغرب القائمين عن الفتوى بتسببهم بعدم مواكبة احتياجات الشباب المسلم في الغرب بفتاوى لا تحافظ على خصوصيتهم الدينية ، فقد سمعته مرة : أنتم من أفسد دين و حياة الشباب المسلم في الغرب ، وذلك بإصدار فتاوى تخص زواجهم بالغربيين وذلك بتحليل ذلك دون تفصيل ، قائلا : زعموا بأن المسألة فيها قولان وهي في حقيقة اثنين وعشرين قولاً؟.

❖ خاتمة

أختم بنازلة عرضت للشيخ محمد سالم ولد عبد الودود الشنقيطي في رحلة علاج لأوروبا سمعتها بسند عال متصل عن صديقي الدكتور المهندس أحمد مسكه بن محمد ولد السادات لما جيئ له في الطائرة المتجهة نحو ألمانيا سنة 2001 بدجاجة فقال ناظما ومفتيا :

خفيفة مثل طعام جوها

دجاجة طرية لتوها

تحريم طعم أوروبا المعلب

حاصل مقتضى نصوص المذهب

فإن يقل هم يذكون
ذكاة ما من ذاك يأكلون

فإن يقل هم أهل كتاب
قلت: زاغ إلى الإلحاد منهم ملتحذ

قلت ومن أحس مسّ السغب
يقول بقولة ابن العربي

فهي وإن زيفها المفتون
في عصره تؤلف المفتون

والحزم الاكتفاء بالأسماك
والبيض والأخباز والفواكي

❖ التوصيات

أوصي بتوجيه طلبة الدراسات العليا لدراسة هذه المسائل في شكل عصري معتمدين على ما ألف في مختلف مدونات الفقه القديمة

كما أؤكد على اختصار المدونات الكبرى ما أمكن وترجمتها بأسلوب عصري و إلى مختلف لغات العالم .
وإعادة ترتيب أبواب النوازل وجمعها في مصنفات جامعة لأحكام أهل الذمة و المعاهدين .

❖ قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم .رواية ورش عن نافع.

أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ،
1399هـ - 1979م، ت/ عبد السلام هارون.

أحمد بوسجادة ،: التسامح الديني في الإسلام مع غير المسلمين أهل الكتاب نموذجا، مجلة المعيار،
مجلد 22، عدد1، الصفحات : من 242 إلى 257، الناشر: مجلة المعيار، كلية أصول الدين ، جامعة
الأمير عبد القادر ، قسنطينة، الجزائر، سنة 2018.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/33628>

ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة دار رمادي للنشر، ت/ يوسف البكري وشاكر العاروري ، الدمام ،
المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 1418 هـ-1997م، .

محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، لبنان
الطبعة الخامسة : 1405 هـ 1985 م .

صالح سعدون ، فقه التسامح الديني في الإسلام ، مجلة جامعة الأمير، مجلد 33، عدد2، الصفحات من :
207 إلى 225 ، الناشر: مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة ، الجزائر . 2019،

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/99653>

سليمان بن صالح الخرشبي ، مختصر أحكام أهل الذمة للإمام ابن القيم ، دار القاسم للنشر والتوزيع ،
الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى : 1425 هـ - 2004 م.

- هذه الفائدة أخذتها من الزميل الأستاذ الدكتور: علي ميهوبي، أستاذ الفقه بكلية الشريعة و الاقتصاد ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر.¹

-صالح سعدون، فقه التسامح الديني في الإسلام، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر ، 2019مجلد33، عدد2، ص207²

- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس بيروت ، الطبعة الخامسة: 1405 هـ 1985 م ص457.³

-أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979 م 1399 هـ، (2/346) ، ت: عبد السلام هارون.⁴

-صالح سعدون، فقه التسامح الديني في الإسلام ، مجلة جامعة الأمير ، ص222 .⁵